القصص

أقصوصة عراقية:

أبو جاسم

للأستاذ محمود ا. السيد

— ١ —

حدثني صديقي ابراهيم والذكرى تؤلمه ، قال :

« كنت في المدرسة الثانوية — السلطانية العثمانية — قبل احتلال الجيش البريطاني بغداد بسنة أو أقل ، أصاحب طالباً من ذوي الذكاء الواعد والخلق الجليل . كنت في السادسة عشرة من العمر . وكان هذا الصديق — واسمه علي بن حسن — خير عون لي في المدرسة . وكنت أعجب بذكائه .. وكان طلقاً جريئاً يسمو على أقرانه بكثير من المزايا والصفات

وكان الى جانبنا طالب آخر يكمل لنا « ثالوثاً » مقدساً بالأخاء والوداسمه عبدالعزيز . وهو من أبناء الطبقة العاملة . كان أكبرنا سنا ، وأقلنا تهذيباً ، وأجرأنا قلباً ، يقاسمني وعلياً في الاعتزاز والتفاخر برجال التاريخ الاسلامي العربي : أجدادنا الأولين . وذلكم كان ديدننا في ذلك العهد : فجر الحرب العالمية الاستعمارية الكبرى وضحاها

وكان أكثرنا حباً لبغدادنا وإيغالاً فيها . . . يعاشر خارج المدرسة فتيةً من أبناء طبقته المكدودة فيشاركهم فيما يعتقدون من باطل العقائد والخرافات . وكان يرى — فيما يرى من غريب الآراء — أن القبعة العسكرية « الأنورية » التي ابتدعتها الحكومة الاتحادية إبان الحرب لرجالها ولطلبة المدارس ، قبعة أفرنجية ، حرام على المسلمين لبسها ، وأن رباط العنق رمز للصليب . ولم يلبس القبعة حتى آخر يوم من أيامه في المدرسة ، فكان الطالب الوحيد البارز من بين الطلبة بطربوشه الأحمر القديم . أما أنا وعلي فقد لبسنا القبعة تلك لأننا لم نستطع أن نشذ عن الجماعة شذوذه .

وكان هذا الصديق الجرىء يقضي أغلب أوقاته في منازعة الطلبة وتحديهم ، فكنت أنصحه راجياً منه أن ينصرف عنهم وعن منازعتهم الى التوفر على دروسه فما كان النصح يجدي

وكان يؤسفني أنه عُرف آخر الأمر بأنه شكس سيئ الخلق ، وإن كان في الحقيقة طيب السريرة خيّراً . ولعلهم كانوا يعيبون عليه كرهه للبس القبعة « الأنورية » لغير ما سبب معقول . وكانوا يتخذونه وطربوشه القديم الذي أوشك أن يبلى هزواً ؛ وهذا ما كان يهيجه . ولم يزده عقاب المدرسة إياه على شغبه إلا جرأة واستمراراً في الشغب والنزاع والخروج على « النظام »

وكما كان يكره القبعة ، كان يكره الحكومة — الاتحادية — أشد الكره ، لأنها حين اضطرمت نار الحرب جندت أخاه الكبير وأرسلته مع من أرسلت من أبناء العراق الى سوح الوغى في القوقاز ، ففقدت أسرته بذلك قوامها وسبب حياتها ، كان قائماً مقام أبيه الشيخ الكبير الذي لا يستطيع عملا ، وكان يحسب أنه لاحقٌ به في العاجل القريب

---

* شاق نطاق هذا العدد عن الصور الرائعة التي يجلوها الأستاذ دريني خشبة من (صور هوميروس) فمعذرة إلى قرائها المعجبين بها . وسنوالي نشرها من العدد القادم

عجبي على باغٍ يقو | لُ لمن بني : هـذا حرام
استعمروا فتلثموا | وخرجت مكشوف اللثام
رمت التنمّر مثلهم | فظهرت في ريش النعام
شررٌ بروما طار يو | شكُ أن يكون له ضِرام
الشعبُ هُدّد بالطوى | والجيشُ بالموت الزؤام
يتساءل الأقوامُ هـل | «نيرونُ» بعد الموت قام
زعزعت أركان السلا | م فذُقْ مرارة الانهزام

كوم حماده — محمود غنيم

وظاهر أن هذا المسلك الذى سلكه عبد العزيز ومشى كان يجب أن يؤدى إلى شر . وكان يجب أن يكون مصيره « الطرد » من المدرسة والحرمان من العلم . وكان متوقعاً كذلك أن يتالنى بعض الأذى من أجله ، فقد كان المدرسون والطلبة – إلا القليل منهم – يناوئوننا معاً ويكرهوننا ويعادوننا أشد عداء . .

واشتدت الحرب فى العراق . وطغى سيل الغزاة الفاتحين . غلب البريطانيون ، وأصبحوا على أبواب بغداد ، فتنكرت الأيام للناس ، وجندت الحكومة طلبة الصفوف العالية ، وأكبت على طلبة الصفوف التالية الأخرى تعلمهم كما تعلم الجند فنون الحرب والضرب وتقحمهم فى أشق الرياضات العسكرية لتلحقهم بهم . وهنا كان حينا الطلبة جميعاً – فى مدرستنا – جبناء ، يملأ قلوبهم الرعب والخوف

أما عبد العزيز فقد استيقظ فى نفسه من جراء ذلك شعور ببغض المدرسة ، ببغض الخروج مع الطلبة – على ما كانوا يفعلون فى كثير من الأحيان – إلى استقبال القواد وحضور الحفلات الحكومية ، ببغض لمدرس الرياضة الذى أرسل الينا آتئذ من الجيش ، وهو ضابط فظ بدين ، ذو شاربين غليظين منتصبين كالصياصى ... وكان يخشاه

وكان – من بعد – حين يخرج من بيته صبحاً يتلكأ فى الذهاب الى المدرسة ، ويحاول أن يتمارض لكى ينقطع عنها أياماً قليلة أو كثيرة . كان يغادر البيت كل صبح ، وكأنه – كما كان يقول لى – يساق إلى سجن لا الى دار علم وعرفان

وجاءنا إذ ذاك مدير للمدرسة جديد – وهو رجل عنيد ، كان يحسبنا مجموع دُمَى من الشمع يسهل عليه اذابتها ثم صنعها ثانية على الغرار الذى يريد . وكان أول من لفت نظره اليه من الطلبة : عبد العزيز ؛ فقد أثار سلوكه اهتمامه وعنايته ، وراح يرهبه ويعالج تأديبه وتهذيبه بالعصا . وأذكر أن طالباً من أبناء الضباط الذين جاءوا بغداد فى أواخر أيام الحرب من البلاد الشمالية ، سفّهه ذات يوم ثم عيّره بالعامية والفقر ، فقابله بالصفع والضرب الوجع المهين ، فما كان نصيبه من المدير إلا الاهانة و « الطرد » . وبذلك أسدل الستار على حياته المدرسية ، وألجئ الى التشرد والعطلة ! وا أسفاه ! !

ولقيته بعد ذلك فألفيته جزعاً ، وقص على قصة النزاع بينه وبين ذلك الطالب – ولا أذكر اسمه الآن – قال :

« غادرت البيت صبحاً وأنا كئيب محزون ، لأن أمى التى لا تفتأ تذكر أخى الجندى ليلاً ونهاراً بالحسرات والدموع ، وأبى للقبل على آخرته غير آسف على شىء فى الدنيا ، وهو يحبه حباً جماً ، لم يصل اليهما كتاب منه منذ شهر وبعض شهر . فأفرغ ذلك صبرها بل أفقدهما الرشد . وإذ كنت أمشى فى الشارع فاجأنى خمسة من الشُرَط يعدون وراء رجل علمت من بعد أنه جندى هارب . وصرخ أحدهم قائلاً : « خائن ! قف ! » ثم أطلقوا عليه الرصاص من بنادقهم فأردوه . وسقط تعباً جريحاً يلهث وعيناه تنظران الى السماء . ووقفت على مقربة منه أنظر اليه فى لهفة وفَرَق ؛ وهو ملقىً وقد اصفرّ لونه وجلّلت وجهه سحابة من قَتَر الطريق ، وتشنجت أعصابه من الخوف ، وأقبل الشُرَط يتراطنون يريدون أن يحملوه ... أعرضت عن هذا المشهد الذى آلمنى أشد إيلام وانصرفت ساهماً ، ولحظت أن الشمس تملأ الأرجاء نوراً ، فعرفت أننى تأخرت عن موعد الدرس الأول . وكنت أمشى متباطئاً ذاهلاً ، فما انتبهت إلا وأنا على باب غرفة صفى ... طرقت الباب طرقاً خفيفاً مرة فمرتين وحاولت الدخول فجابهنى المعلم آمراً إياى بقوله : « أخرج ، اخرج ، اندفع ياحمار ! » أو كنت حماراً فى اصطبل أبيه ؟ ! وكنت حتى حين خروج الطلبة من الصف إثر الفراغ من الدرس ثائراً مهتاجاً ، فلقينى ذلك النذل فلاغانى فلكمته ، وماذا كان يجب على أن أفعل ؟ وسحقاً للمدرسة بعد أن يتالنى من هؤلاء فيها أذى ! »

* * *

وقال صديق ابراهيم وقد حدثنى بحديثه هذا بعد انتهاء الحرب ومرور سبعة أعوام على نهايتها :

« ثم احتل البريطانيون بغداد ، وفرقت صروف الزمن بيننا – بعد ذلك – إذ رحل بى أبى وأسرتنا كلها الى الحلة ، فأقمنا فيها قرابة سنين أربع ، فلما عدنا اليها لم أسمع لصاحبى عبد العزيز ذكرا »

– ٢ –

وكتبت هذا الحديث لطرافته عام ١٩٢٩ . ثم مضت على ذلك أعوام ثلاثة ، فبدا لى يوما أن أسأل ابراهيم :

« هلا بحثت فى هذه المدة الطويلة الماضية عن رفيقك القديم ؟ رفيق المدرسة وطريدها عبد العزيز ؟ »

فأجابني وهو شاعر بما يتضمنه سؤالي من ملامة :

« لقد بحثت عنه في الأيام الأخيرة ، فبلغني من أنبائه ، أنه كان هاجر قبل مدة غير محدودة بالضبط الى البصرة ، ليتكسب فيها ويعيش عاملاً لدى إحدى الشركات الأجنبية ، فانه أضحى في عُنفوان شبابه ، وبلغ السن التي يستقل فيها المرء بالكفاح والجهاد في سبيل الحياة ، وان أخاه الجندي المحارب لما يعد ، وهلكت أمه ومات أبوه فقيراً معدماً ، لم يترك له إلا ديوناً وداراً ، بل كوخاً باعه الدائنون ؛ ولم يف ثمنه بعشر معشار تلك الديون . ولم يكن متعلماً حرفة ، ونسي ما تعلمه في المدرسة الثانيـة من مبادئ العلوم . وكان يزاول بعض الأعمال الشاقة التافهة التي يزاولها العمال الذين هم من أدنى الدرجات ؛ ولا يأخذون عليها أجراً يستحق ذكراً . هـذا كل ما سمعته عنه . ولا يعلم أحد على التحقيق أذهب الى البصرة أم الى جهة أخرى »

قلت :

« أو لا ترى من واجب الوفاء إتمام البحث عنه لاستئناف الصلة به والوقوف بجانبه في معترك الحياة ، في هذا المجتمع الذي طغت فيه المادية والأنانية والفردية ، المجتمع الجائر القاسي الذي لا يرحم الفقير ، وأن تنفعه وتعينه على اكتساب الرزق ، فانك موسر بعض اليسر . »

قال :

« وهل تحسب عبد العزيز المشاغب في المدرسـة ، الذي لم يعرف سوى عزة النفس والأباء في أيامه الماضـية عُدة وخُلقاً ، والذي لم يستمن أحداً من صحبه يوماً لو وجدته الآن لمدّ لي ولأمثالي يده في إبداء حاجة واستعانة مهما كان معسراً تنقض ظهره الشدة والفاقة ؟ كلا . أنا لا أحسب ذلك ؛ بل أحسب أن تلك الفترة من أيام مُراهقته وفاتحة شبابه ، كانت مقدمة وعنواناً لما كان مقبلاً عليه من أيام شبابه ورجولته »

ثم سكتَ وسكتُّ

وبعد شهرين أو ثلاثة أقبل عليّ يزورني في داري ، وما عتم أن راح يحدثني عن رفيق صباه عبد العزيز الذي عثر به آخر الأمر فقال :

« ولقد وجدته آخر الأمر وصاحبته . . . ولـكن أين ؟ احزر أين وجدته ؟ في السجن ! ولا تستغرب ؛ فقد ذهبتُ يوم الجمعة — أمس — الى هناك لأزور صديق الصحافي عبد الصمد الذي سجن متهماً بنشر ما لا تجيز الحكومة نشره ، وإذ كنت أدخل الحجرة التي يُسمح بمقابلة السجناء فيها ألفيتني أمامه وجهاً لوجه . وكان يكلم زائراً غريباً يرتدي بزة العامة ، ربما كان صديقاً له . ولم أعرفه إلا بعد تأمل فيه قليل ، لأن سحنته قد غيرتها السنون ؛ وحييته فحياني وبسم لي ، ثم ساءلني : « أو قد نسيتني يا ابراهيم يا حبيبي ؟ يا رفيق الأيام الحلوة التي لن تعود ! وهل نسيني علي كذلك ؟ وكيف هو ؟ .... الخ » ودمعت عيناه من شدة الفرح بلقياي ، وكان طليقاً جريئاً ، كما كان في المدرسة ، في محادثته السجانين وصاحبي الصحافي عبد الصمد الذي لم يكن يعرفه من قبل ، ورأيت أن لهجته في الكلام أصبحت عامية سوقية خالصة ، تميزها التعابير والألفاظ التي تجري — عادة — على ألسنة هؤلاء الذين عرفوا بفعال « الشقاوة » — كما نسميها — التي تظهر فيها ، في أغلب الأحيان ، شجاعة نادرة في غيرهم و « أريحية » ونجدة وكرم على فقر ، وجرأة في اجتراح الجرائم ، وكراهية شديدة لكل من يمت إلى الأجنبي الناصب بصلة باقية من عهد الاحتلال المظلم ، على ما تعرف . ولا أدري كيف أدركت أنه محكوم عليه بعقاب السجن لاجرامه جريمة قد لا يفخر المرء بها عندنا ، فلم أشأ أن أسأله عما أدى به الى حاله تلك . ومن الغريب أنه لم يكن يرى في أمره غرابة ؛ وكأنه كان معلوماً عندي ما اجترم فلم يخبرني به ؛ وسرعان ما راح يودعني ، إذ كانت الفرصة المسموح بها لزيارة المسجونين ضيقة جداً ، متمنياً أن يلاقيني عقب خروجه من السجن ، و « أن يكون تحت النظر » على حد تعبيره الشعبي الرمزي الجميل ، « فانه لا يزال على وده القديم ، وذلك الصاحب الذي لا ينسى الصحب على طول الزمان ، ولا يرضى عن الوفاء بديلا » . وترك المجلس لي ولصاحبي منصرفاً عنا في لياقة وحسن أدب ، كما ينصرف الواحد منا عن اثنين لديهما سر ، ولم يكن لدينا — في الحقيقة — سر غير أمره . فانني كنت في أشد الشوق الى سماع قصته ، وبتعبير أصح : قصة جريمته من صاحبي عبد الصمد ؛ وقد أحجمت عن سؤاله عما أدخله السجن ساعة لقيته لكي لا أجرح منه شعوراً طالما كنت أقدره ، بل اقدسه في أيامنا التي خلت ، في أزهى زمان وأحلاه ، زمان الدرس والتحصيل . وقال لي

عبد الصمد : « هذا فتى باهر الخصال يا أخي ، ولا أرى فائدة في أن أقص قصته عليك في اسهاب وتفصيل ، فهو الآن مجرم محكوم عليه بالسجن ثلاث سنين لأنه جرح رجلاً من الأجانب ، كان يحترف عملاً فنياً لدى شركة أجنبية في البصرة ؛ وكان عبد العزيز « يشتغل » هناك بيده كعامل لا شأن له ، ورئيسه ذلك الأجنبي ، على أنه كان شخصاً مخيفاً بين العمال ، خشن الطباع ، شرساً ، كذلك قالوا عنه . وليس في حادثته التي طوحت به الى السجن ما يستغرب منه ومن أمثاله في العراق اليوم ، فقد انتهره ذلك الأجنبي ذات يوم ، وشتمه وأهانه ، لأنه أخطأ في عمله بعض الخطأ ، فما كان منه إلا أن قابل اهانته اياه بطعنة بمديته ، فجرحه ، ولم يصب منه مقتلاً . انتهت قصته . أما هو فما يزال يذكر الحادثة غير مكترث بما صار اليه من جرائها ، فهو يرى لها سبباً من أسباب التفاخر بالجرأة والشجاعة ، ولا سيما أن المجني عليه أجنبي من بقايا الذين جاءوا في الحرب في « الحملة » على العراق ، وهو يقول لنا عنه في سذاجة ويكرر قوله مراراً : « ليته كان من أبناء أمتنا أمثالي ، إذن والله لما جرحته ، لما جرحته » ، فانظر الى رقة شعوره وشدة كرهه للأجانب الذين أرهقوا البلاد في الحرب الاستعمارية الكبرى وبعدها . . . . والعبرة ليست فيما حدثتك ، بل فيما أرى عند هذا العبد العزيز الذي لقبوه في السجن بأبي جاسم كما يلقب العراقيون عادة فتيانهم ذوي « الأريحية » والنجدة والشجاعة ، مجرمين كانوا أو غير مجرمين ، من فلسفة القوة والأمل والتفاؤل والاستهزاء بصروف الحياة ، فانني — وقد خصني بصداقته وترحابه منذ أن دخلت السجن — قد أسفت على حالي كثيراً ، وطالما اسودت الدنيا في وجهي يأساً وتشاؤماً ، فلا أكاد أسمع نصائحه الساذجة في ظاهرها ، وضحكاته ذات الرنين العالي ، وأغانيه الشعبية التي يرسلها من نفس زاخرة بالأحلام والآمال ، حتى تتفرّجُ نفسي من اليأس ، وتبدد عني سحب التشاؤم والأسى ؛ فوالله ما نفعتني في هذه الأيام العابسة الكتب وفلسفاتها المهذبة المصقولة ، بقدر ما نفعتني نصائح وضحكات وأغاني هذا الصديق الجديد في السجن ، بل في مدرسة الرجال والأبطال ، على ما يسميه ؛ وأنا ناقل لقوله فما عليّ من لوم ، فالناس تسمي السجن مدرسة المجرمين »

* * *

قال محدثي ابراهيم :

ثم زايلت السجن وكلي أسف على حياة صاحبي القديم ، التي أحسبها ضائعة بعد هذه الحال التي صار اليها ؛ وهذا ما كنت أتوقعه منذ طرد من المدرسة السلطانية العثمانية . تلك مقدمة هذه نتيجتها ... وفي نيتي أن أزوره يوم الجمعة القادم »

قلت وأنا مصغ له في غير أسف :

« ولكن عبد العزيز أبا جاسم ، وهو جدير بلقبه هذا ، كان شريفاً من قبل ، شريفاً من بعد ؛ ورب مجرم معذور ؛ فاما أنه كان فقيرا وسوف يغدو كما كان ، فما في الفقر من عيب . وما ضاعت حياة من كان مثله إباء وعزة نفس .... »

العراق — الأعظمية محمود . أ . السيد

لجنة التأليف والترجمة والنشر

أتمت لجنة التأليف والترجمة والنشر طبع كتاب :

المختار

للأستاذ عبد العزيز البشري

وهو التخير مما جادت به قريحة الأستاذ في عشرين عاماً وهذا الجزء ينتظم ثلاثة أبواب : الباب الأول باب الأدب ، والثاني باب الوصف ، والثالث باب التراجم

وقد طبع طبعاً أنيقاً مضبوطاً كثير من لفظه بالشكل مفسراً ما يقع فيه من غريب وذلك على ورق صقيل ، وحلي فوق هذا بصور فاخرة وغلف بغلاف بديع ثمين ، وثمن هذا الجزء خمسة عشر قرشاً صاغاً عدا أجرة البريد

ويطلب بالجملة من مكتبة المعارف بالفجالة

وبالمفرد منها ومن المكاتب الشهيرة